مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد 10 / العـدد: 01 (2024)، ص 23-37

الحضور الصوفي بالجنوب الغربي خلال الفترة العثمانية من خلال كتب الرحالة

The Sufi presence in the southwest during the Ottoman period through the books of travellers

د. يوسف بن حيدة [1*]
[1] جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي (الجزائر)، nhidaBe.Youcef@dz.oeb

تاريخ الاستلام: 2021/12/06 تاريخ النشر: 2024/06/30

ملخص: شكل الحضور الصوفي بالجنوب الغربي خصوصية دينية واجتماعية تجسدت في مظاهر سلوكية من حلقات للذكر وأخذ الورد والعهد والمصافحة والزيارات، إضافة إلى مظاهر تنظيمية تمثلت في طرق صوفية أبرزها الطريقة الزيانية و الموسوية الكرزازية والشيخية والتي اتخذت بدورها زوايا شكلت مراكز استقطاب للأتباع والمريدين.

وسنحاول في هذا الموضوع التعرف على أبرز الرحالة المغاربة الذين سلكوا طريق الجنوب الغربي الجزائري أو اتخذوه محطة لهم ضمن مسار الرحلة الحجازية، وما تناولوه من خطاب صوفي يبرز الخصوصية الدينية والاجتماعية التي عرفتها المنطقة خلال الفترة العثمانية.

كلمات مفتاحية: التصوف؛ الجنوب الغربي ؛ الرحالة ؛ الزوايا؛ الفترة العثمانية.

Abstract: The Sufi presence in the southwest formed a religious and social specificity that was embodied in behavioral manifestations of remembrance, taking roses, vows, handshakes, and visits, in addition to organizational manifestations represented in Sufi ways, most notably the Zeyaniya, Al-Mousawia, Al-Karzaz and Sheikhia, which in turn took corners that formed centers of polarization for followers and followers.

In this topic, we will try to identify the most prominent Moroccan travelers who took the southwest algeria road or took it as a stop for them within the path of the Hejaz journey,, and what they dealt with from a Sufi discourse that highlights religious and social privacy known to the region during the Ottoman period

Keywords: mysticism; Southwest ; traveler; angles; Ottoman period.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

اكتسب الحضور الصوفي بالجنوب الغربي أهمية لدى النخبة والعامة، وتنوعت معه مظاهر التأثير على مختلف المستويات وهو ما جعله يحتل مكانة هامة في أدبيات الرحالة الذين زاروا المنطقة وتركوا آثارا شاهدة عليها، وتتمحور إشكالية الدراسة حول منطقة الجنوب الغربي كفضاء جغرافي عرف حضورا صوفيا تناولته الدراسات وخاصة كتب الرحالة وما تطرّقوا له من مظاهر تندرج ضمن المنظومة الصوفية في جانبها النخبوي أو الشعبي.

وللإجابة على التساؤلات حاولنا التعرف على نماذج من الرحالة الذين زاروا منطقة الجنوب الغربي، وما سجلوه من ملاحظات وتأملات أبرزوا خلالها بعض الميزات التي اشتهرت بها في جانبها الصوفي، مع التركيز على تاريخية الفترة التي استغرقت القرن السادس العشر إلى بدايات القرن التاسع عشر (1518- 1830) فترة التواجد العثماني بالجزائر عبر المجال الجغرافي وفضاء الجنوب الغربي الجزائري وتسليط الضوء علي نماذج تأسيسية أو تكوينية كان له دور ضمن النسيج الصوفي بالمنطقة وخاصة في جانبها التنظيمي، وسنحاول إبداء بعض الملاحظات عن الترابط بين الرحلة والتعريف ببعض الطرق الصوفية وشيوخها بالمنطقة، ودور الرحالة في التعريف بالتصوف وخصوصياته الاجتماعية من خلال تواصلهم بمتصوفة المنطقة وما طرحوه من شهادات أصبحت تمثل مصدرا لما عايشوه من وقائع وعلاقات أثناء نزولهم بالجنوب الغربي أو مرورهم به، وفق منهج تاريخي تحليلي يتناول بالدراسة نماذج متنوعة مرتبطة بتجارب لشيوخ ومريدين وأتباع ضمن مكونات التصوف، وأثر ذلك على تقلّد المشيخة الصوفية والتأسيس لها بالجنوب الغربي.

2. التعريف بالرحلة واهتماماتها الصوفية:

1.2 أبرز الرحالة وزيارتهم للجنوب الغربي:

شكلت كتب الرحلات مصدرا من مصادر الدراسات التاريخية بما ضمنه مؤلفوها من معلومات عن الأماكن التي زاروها أو كانت مستقرّا لهم، خاصة وأنّ هذه الأدبيات نقلت إلينا مظاهر للتواصل الفكري والصوفي بين بلاد المغرب والمشرق و أعطتنا صورة عن البيئة الاجتماعية والسياسية للمناطق التي زاروها، وأغلب الرحلات التي اعتمدناها تندرج ضمن الرحلات الحجازية كان منطلقها من المغرب الأقصى باتجاه مكة المكرمة لأداء فريضة الحج باعتباره المقصد الأول لكل تنقل، ومنها إلى أماكن أخرى من العالم الإسلامي، وفي هذا الإطار شكل الجنوب الغربي محطة ضمن مسار الرحلة الذين سلكه كثير من الرحالة المغاربة، فأعطتنا صورة على المنطقة نتيجة لزيارات قام بها الرحالة إلى الأولياء والعلماء من مشايخ الصوفية، ولعل أبرز هؤلاء الرحالة الذين اشتهروا بكتابتهم عن المنطقة ما تناوله الرحالة يوسف بن عباد الفاسي في رحلته من المغرب إلى حضر موت لطلب العلم والتي كانت سنة 991هـ/1583م. (بن عابد،1993: 07). و ابن أبي محلي(967هـ/1560م-1021هـ/1612م) في رحلته الحجية الأولى سنة 1001هـ-1593م/1003هـ-1594م، والرحلة الثانية 1013هـ- 1604م /1014هـ- 1594م التي جاءت ضمن رسالة بعثها إلى " علماء الشرق وقادة العصر " وسمّاها المؤلف عذراء الوسائل، وهودج الرسائل، في مرج الأرج، ونفحة الفرج، إلى سادة مصر وقادة العصر، أو إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت (قدوري،1991 :95) . زار خلالها منطقة وادي الساورة واتخذها مستقرّا له للدعوة قبل الثورة، كما تناول أبو سالم العياشي منطقة الجنوب الغربي في رحلته إلى الحج عام 1072هـ/1661 -1074هـ/1664ذهابا وإيابا، والهشتوكي في رحلته إلى الحج الأولى الموسومة بهداية الملك العلام لعام 1096هـ/ 1685م، وكذا أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته إلى الحجاز ما بين 1121هـ/1709م ذهابا وإيابا سنة

1122هـ/1710م والمعروفة بالرحلة الناصرية (الدرعي ،2011: 26) . ومحمد الطيب الفاسي المعروف بالشرقي(ت1171هـ/1758م) في رحلته من فاس إلى مكة المكرمة (الطيب،2014: 07).

هذه الرحلات وإن اختلفت في تناولها للمنطقة بين إشارات عابرة يغلب عليها الاختصار ، وأخرى تتضمن معلومات مرتبطة بالجانب الصوفي بالمنطقة. إلاّ أنّها تبقى ذات أهمية في تزويد الباحث بمعلومات عن شخصيات صوفية وزوايا المنطقة، ومكملة للمادة المصدرية المنقبية وكتب التراجم وغيرها فيما يتعلق بالمظاهر الصوفية وحضورها على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، وبما تتناوله من خصائص ضمن مسار الرحلة على اعتبار أن معظم هؤلاء الرحالة اشتهروا بتكوينهم الصوفي، وهو ما يعكس اهتماماتهم ويساعد الباحث على الإطلاع على الميزات الدينية والاجتماعية التي عرفها مجتمع جنوب غرب الجزائر من مؤثرات وممارسات وبأسلوب متنوع خلال فترة الوجود العثماني.

2. الخطاب الصوفي في أدبيات الرحالة بالجنوب الغربي :

لعل ما يميّز كتب الرحلات فيما تناولته من جوانب مختلفة هي انتماء مؤلفيها إلى التيار الصوفي وهو ما يَبرز جليا فيما تناولوه من تواصل مع مشائخ المنطقة أو زيارات للزوايا أو المزارت والأضرحة، والجدير بالذكر أنّ من هؤلاء الرحالة من كانت كتاباته تتميز بطابع تنظيمي ووصف دقيق مثل العياشي ومنهم من اعتمد على الإشارة دون التعمق كما هو حال محمد الطيب الفاسي والحضيكي، ومن خلال مقتطفات الرحلات حاولنا إعطاء صورة عن مظاهر الحضور الصوفي بالمنطقة من خلال عرض أمثلة مرتبطة ببعدها الزماني والمكاني .

2 .2 رحلة بن أبي المحلي واستقراره بإقليم الساورة :

يعد ابن أبي محلي السجلماسي من أشهر الرحالة الذين تركوا آثارا بالمنطقة من خلال رحلته الحجية الأولى و الثانية 1013هـ- 1604م /1014هـ- 1594م والتي مثلت مستقرا له لفترة زمنية، حيث نزل مهاجرا ببني عباس بمنطقة وادي الساورة، وهذا ما

يورده في رحلته بقوله :"فخرجت من بلدي سجلماسة مقهورا مضطرا عام 1592 ثالث ثلاثة من خاصة الرفقاء لاسوى، ثم اجتزت بوادي الساورة، فتعرض لي شيخهم ابن شمس الدين العباسي ... أيده الله، فصاهرني بابنته .ثم مضيت بعد إقامة ثلاثة أشهر أو نحوها عنهم على طريق فجيج صاعدا، وأقمت بها ثلاثة أيام فقط ثم ارتحلنا مشرقين على القرارة مع بوسمغون والشلالة ووادي الربا والكراكدة والغاسول والخضرا وعين ماضي ...."(حمادي، 2019: 114).

وضمن مسار رحلته الأولى كان ابن أبي محلي قد استقرّ ببني عباس سنة 1000هـ/1592م وصاهر الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن شمس الدين العباسي، ومنها انطلق متجها إلى الحجاز في حجته الأولى، وبعد رجوعه من الحجة الأولى لجأ ابن أبي محلي إلى وادي الساورة أين توطدت مكانته أكثر واشتهر أمره بمستقرّه في قصر بني نيرت لفترة قاربت ثمانية عشر سنة مابين (1002-1019هـ/ 1594- 1610م) تفرغ خلالها للتأليف وتدريس العامة والخاصة والنصح وكان يستقبل الوافدين من طلبة العلم من مختلف الجهات لأخذ الفقه والحديث والتصوف والإنسلاك ضمن طريقته الصوفية الحرارية الجزولية الساحلية الشاذلية ونيل البركة، وهو ما عبر عنها ضمن مراسلات بينه وبين بعض العلماء والتي أبرزت مكانته الصوفية ووصوله إلى رتبة القطب، ومطالبة البعض من مراسليه بالإنسلاك في طريقته على حدّ إحدى رسائله المتضمنة العبارة التالية : " فأردنا سيدي الإنضمام في عقدكم والإنخراط في سلككم فلا تمنعونا سيدي ابعثوا لنا سبيحة من أيديكم أو غير ذلك كشاشية من فوق رأسك لتكون عندي البركة .." (قدوري،1991: 45). واستمر على هذا الحال إلى أن أعلن المهدوية وثار ضد السلطان السعدي بالمغرب، حيث يذكر الإفراني أنه :" دعا لنفسه، وأظهر أنّه ما حمله على ذلك إلا كثرة المناكر وتفاقم البدع، ولم يقتصر على ذلك وادّعى أنه المهدي المنتظر وأنّه بصدد الجهاد فاستخف قلة من العامة فاتبعوه إلى أن خرج ثائرا (الإفراني،1998: 301).

ويبدو أن اشتهار أمر ابن أبي محلي ونفوذه بمنطقة الساورة و اعتقاد بعض العامة بأنه المهدي المنتظر، فتح أمامه المجال لقيادة الثورة بعد أن ذاع صيته فانحشر الناس لزيارته وكثر أتباعه فأعلن الثورة ضد السلطان زيدان واستولى على سجلماسة ودرعة بعد هزيمته لعبد الله بن المنصور، ثمّ مراكش بعد فرار زيدان إلى ثغر آسفي واستطاع السيطرة على الحكم لولا استعانة السلطان زيدان استعان بأبي زكريا يحيى بن المنعم الحاحي الذي قضى على ثورة ابن أبي محلي (الناصري،1997: 26).

3.2 بين شيوخ الطريقة الشيخية والرحالة :

تعدّ الشيخية من أشهر الطرق التي انتشرت في منطقة الجنوب الغربي حيث كان لها امتداد واسع ضمن هذا المجال، فهي تنسب إلى مؤسسها الشيخ عبد القادر السماحي (ت 1011هـ/ 1603م)، وتميزت بطابعها الصوفي الشعبي نتيجة انضمام سكان الريف والقبائل المتنقلة إليها، خاصة وأنّ سيرة عبد القادر السماحي تبرز أنّه كان من الأولياء الأميّين أو المرابطين الذين ربطوا حياتهم بالقبيلة والعامّة وكان يعيش هموم الناس ويتعامل وفق السلوكات السائدة والعرف، واتخذ شيوخها زوايا لاستقبال الأتباع منها الزاوية الأمّ بفيجيج والمعروفة بزاوية العباد، وزاوية الأبيض سيد الشيخ التي كان يستقبل فيها الشيخ المؤسس أتباعه بعد انتقاله إليها، ويذكر في هذا الجانب الرحالة يوسف بن عباد في رحلته الذي زار خلالها المنطقة لقاءه بالشيخ عبد القادر السماحي بعد انتقاله من فقيق حيث يقول : " ثمّ سرت من هذي المكان مع زوار إلى الشيخ عبد القادر الحمياني المذكور قريبا وقمت في المكان حتى وجدت الزائرين إليه من وادي فقيق على حمير تشتغل بالأسفار، وكان هذي الشيخ في مكانه ووقع بين قبائل الجهة حرب واعتزل منهم في مشارق أراضيهم بنحو خمس مراحل بينه وبين فقيق، وكان خبر هذا الشيخ يصل إلي وأنا في مدينة فاس .."(بن عابد،1993: 84). وقد أخذ عنه صاحب الرحلة مبادئ الطريق وألبسه الخرقة حيث يضيف فيقول :" ...فقلت له ياسيدي رأيت نفسي سائرة إلى المشرق كما يسير السحاب في الهواء، فقال لي الأمر كذلك فأخذ ثيابي فألبسني ثيابا دون ثيابي في

الرثاثة وناولني عكازا وبرنصا ومسبحة وكوفية وقال لي هذا لباسك مني خرقة التصوف، وخرقة الإشارة كما ألبسني شيخي عبد الرحمان الفقيقي، وكما ألبسه شيخه أحمد بن يوسف الملياني..." (بن عابد،1993: 86). وهذا له دلالة على انضمام الرحالة بن عابد إلى الطريقة الشيخية التي ازداد نشاطها بزاوية سيدي الشيخ بالأبيض التي أصبحت قبلة للأتباع لزيارة ضريح الشيخ وقراءة الأوراد والأذكار الخاصة بها، واستقطبت العامة، وتعاقب على مشيخة الطريقة أبناء سيدي الشيخ وأحفاده الذين توارثوا مشيخة الطريقة وتسيير الزاوية الشيخية، ومنهم أبو حفص الحاج بن عبد الحكم(1071هـ/1660م) الذي كان له دراية وتكوين صوفي فقد وصفه العياشي في رحلته بقوله:" له هدي وصيت وحسن وتنسك،مثابر على فعل الخيرات من جهاد وحج، فقد أفنى عمره في التردد على الحرمين الشريفين ...، ولقيناه بعد ذلك في حجة سنة خمس وستين ونحن قافلون، وتؤثر عنه كرامات وله أتباع، وكان يسير غالبا للحجاز بنسائه وأولاده، ويعامله الناس كثيرا، الأمراء فمن دونهم، ويتبركون به "(العياشي،2006 : 111- 113). وقد أوصى الشيخ أبو حفص قبل وفاته بمشيخة الزاوية لأخيه عبد الحكم 1660م وبدوره تخلّى عنها لابن عمِّه الحاج الدّين بوحفص، غير أنّ ما عرفته الشيخية من مداخيل عن طريق الهدايا والزيارات التي كان يقدِّمها الأتباع والزوّار لضريح سيدي الشيخ قد نتج عنها نزاع داخل القبيلة بلغ حدّ السلاح بين سليمان بن قدور مدعوما بأولاد حميان ضدّ أولاد بوحفص فنهب قطعانهم وتسببت المعركة في انقسام القبيلة إلى صفّين الشراقة يتكونون من أولاد بوحفص وأتباعهم يقطنون القصر الشرقي أسسوا زاويتهم المعروفة بزواية الحاج بوحفص، وصفّ الغرابة المتكون من أولاد عبد الحكم وأتباعهم يقطنون القصر الغربي بقيادة سليمان بن قدور أنشأوا زاوية سيدي الحاج عبد الحكم في القصر الغربي، ونتج عن هذا الإنقسام تقسيم مداخيل الزاوية حيث استحوذ الشراقة عل ثلثي المداخيل باعتبار أنّ الزاوية الأمّ تقع في جهتهم، والغرابة على الثلث، وتفرّق عدد كبير من أفراد العائلة ابتداءا من سنة

1766، واستقرّوا في مناطق مختلفة من الأيّالة ،ومنهم من هاجر باتجاه المغرب الأقصى، ومنهم من انسلك في طريقة أخرى كما هو حال سليمان بن قدور الذي تذكر الروايات أنه دخل في الطيبية وأصبح تابعا لزاوية وزان(356 : 1884 ,*Rinn*).

هذه المكانة التي احتلّتها الطريقة الشيخية بالمنطقة لم تتناولها كتب الرحالة بالتفصيل ماعدا ما أشار إليه العياشي وبن عابد في رحلتيهما، وتبقى المصادر المنقبية متممة لما تضمنته الرحلات خاصة في ما تعلّق بمشيخة الطريقة ومبادئها الصوفية ومجالها الجغرافي.

4.2 **بين الفقيه بن أبي محلي والشيخ عبد القادر السماحي** :

لعل من أبرز ما عرفته المنطقة في بداية القرن السابع عشر الديني الخلاف الذي حدث بين الفقيه بن أبي محلي وشيخ الطريقة الشيخية بالمنطقة الشيخ عبد القادر السماحي، رغم العلاقة الودية والمصاهرة التي كانت بينهما قبل سنة 1012هـ/ 1603م، غير أنّ هذه العلاقة الودية لم تستمر طويلا بل عرفت تشنجا وعداوة تمثلت في الإنتقادات التي وجهها ابن أبي محلي لصهره مشنّعا عليه في كثير من المواقف، هذا الصراع الذي مثل اختلافا بين التصوف الشّعبي الذي ينسب للشيخ عبد القادر السماحي، والتصوف النخبوي الذي مثله الفقيه ابن أبي محلي في مساجلات ضمنها ابن أبي محلي ضمن أدبياته مستنكرا عليه الكثير من السلوكات (قدوري، 1991: 46).

ولعل الخلاف يرجع إلى صراع الزعامة والسلطة الروحية والتأثير على الأتباع بالمنطقة الصحراوية عموما والجنوب الغربي خصوصا، فابن أبي محلي الذي كان في سن الأربعينات يسعى إلى القيام بثورة ضدّ السعديين وما كان يحضّر له بادعائه المهدوية، وسيد الشيخ كان له نفوذ بالمنطقة ويحظى بمكانة عند العامة والخاصة، وأمام التطورات التي عرفتها العلاقة والتي كانت تنذر بحرب محلية وانقسام أتباع الشيخين إلى طائفتين كانت الغلبة فيها لأتباع السماحي بمنطقة فقيق وصحراء الشلالة فقد آذوا أتباع ابن أبي محلي وأخذوا أموالهم(حمادي،2019: 111).

وكان لهذا الصراع أثره في علاقة بن أبي محلي بمشائخ المنطقة ففي رحلته الحجية الثانية سنة 1013هـ/1604م سلك طريق تسابيت من بلاد توات نحو إقليم تقورارين التي أقام بها نحو أربعة أشهر التقى فيها بمشائج المنطقة، ووقعت له عداوة بين الشيخ القاضي محمد بن عبد الله بن عبد الكريم بسبب دفاعه عن شيخه عبد القادر السماحي(حمادي،2019: 111) .

ويبدو أن المجال الجغرافي للتنافس بين الفقيه ابن محلي و الشيخ عبد القادر السماحي كان بالجنوب الغربي، ومع ذلك لم يؤثر ذلك على نشاط الطريقة الشيخية ومكانتها الإجتماعية التي احتلّتها بالمنطقة وتدعمت أكثر بسلطتها الروحية والمادية.

5.2 زيارات الرحالة للزاوية الكرزازية :

تعدّ الطريقة الموساوية الكرزازية من الطرق الصوفية التي ظهرت في الجنوب الغربي للجزائر وهي فرع من الشاذلية تنسب إلى مؤسسها أحمد بن موسى الحسني مولى كرزاز(ت 1013هـ/1604م)(الكرزازي،1941: 3-4)، الذي بدأ تكوينه الأولي بمنطقة كرزاز حيث حفظ القرآن على الشيخ محمد محمد بن أحمد بن غازي المكناسي، ثم توجه إلى فاس ومنها إلى سجلماسة حيث أخذ التصوف الشاذلي عن والشيخ أحمد العروسي(ت1002هـ/1593م) وعن الشيخ محمد بن عبد الرحمان السّهلي (ت936هـ/1530م) بسنده عن الشيخ أحمد بن يوسف المليانى عن الشيخ أحمد زروق بأسانيده (الكتاني، 1982: 836).

وقد احتلت الزاوية موقعا استراتيجيا في الطريق المؤدّي لتوات بمنطقة كرزاز مشكلة محطة للحجاج والرحالة وقبلة للوافدين إليها في حياة الشيخ أحمد بن موسى واستمرت في عهد ذريته، فقد ذكر العياشي في رحلته إلى الحج نزوله بها سنة 1072هـ /1661 وكان ذلك في عهد الشيخ أبي زيد عبد الرحمان الملقب بأبي فلجة بن أحمد بن موسى(ت 1115هـ/1704م)، ويشير إلى ما لقيه من كرم وحسن استقبال بقوله: " ..نزلنا

بزاوية سيدي أحمد بن موسى، نفعنا الله به، وأحسن صاحبها في القرى لنا ولسائر أهل الركب.."(العياشي،2006: 78) .

ولعل الشهرة التي اكتسبها الشيخ المؤسس كشيخ تربية وتلقين، هذه السّمة التي ارتبطت بتصوف البركة عند الأتباع على منوال العياشي، اقترنت أيضا بالتكوين السلوكي فالطريقة الموساوية اهتمت بتربية المريدين بما تركه الشيخ من نظم لتكوين الأتباع والمريدين وكذا أوراد وأذكار الطريقة، كما اشتهرت الزاوية بتنوع مصادر دخلها فمنها القارّة والتي تمثلت في النّخيل باعتبار أنّ المنطقة صحراوية وتشتهر بالواحات التي كان تمتلكها في إقليم الساورة وتوات، إضافة إلى الهدايا والتبرّعات التي كانت تقدمها القبائل في شكل خراج سنوي يقوم المقدّم مع أولاده وخدامه في موكب لجمعه من القبائل المنتشرة بالمنطقة ومنها التواتيون والغنانمة وأولاد جرير وذوي منيع وحميان والعمور وغيرها من القبائل البدوية التي كان تحوب البراري للكلأ والرعي، والتي كان لها ارتباط روحي واعتقاد في بركة الشيخ ومكانته الصوفية (حوتية،2007: 194).

6.2 الرحالة والزاوية الزيانية :

يبدو أن الطريق الذي سلكه أغلب الرحالة المغاربة كان عبر وادي الساورة، وفي هذا الجانب ترك الرحالة انطباعات عن المنطقة بزيارتهم للزاوية القندوسية وشيوخها، فالطريقة الزيانية التي أسسها الشيخ محمد ابن أبي زيان(ت 1145هـ-1733م)(الغيتاوي، بدون تاريخ:16). هي امتداد للطريقة الشاذلية الناصرية، وأساسها تربوي تكويني يقوم على تربية المريد والسالك عن طريق تلقين الذكر والورد وتحديد أوقات قراءته وفق ما انبنت عليه مبادئ الطريقة.

ومن الرحالة الذين زاروا شيخ الطريقة الزيانية ابن ناصر الدرعي وهو في طريقه إلى الحج حيث كان نزوله بإزاء دار الشيخ محمد بن أبي زيان وأكرم وفادتهم حيث يقول :" وأدخلنا مع جماعة من أصحابنا داره وأطعمنا البسر والكسكس واللحم حتى شبعنا كثر الله خيره(الدرعي، : 124) . وعند عودته من الحج يشير الدرعي إلى أنه أسقط عن أبي زيان

الإذن في إعطاء العهد وربما هذا بسبب إعطائه العهد للعامة دون تكوين وهو ما نصه:" ونصحنا هناك القنادسي أبي ابن زيان إنقاذا له من حبالة الشيطان، إذ أذنا له في تلقين الأوراد نيابة عنا...أن لا تلقن أحدا إلا على الوجه الذي أُذن لك فيه... "(الدرعي ،:723)

ولعل الإنتشار الذي عرفته الطريقة الزيانية هو الذي جعل الناصري يراجع الإذن في التصوف لشيخ الزيانية بعد أن عرفت استقطابا واسعا ولم تعد مختصة بالنخبة بل عرفت طريقها إلى العامة والبدو بالحصول على العهد من الشيخ، وهو ما عبر عنه الرحالة ابن ناصر الدرعي بقوله :" وانكبت عليه الناس لشدة رغبتهم في الانخراط في سلك مشيختنا "(الدرعي، 2011 : 723) . ولم يأخذ الزياني بنصيحة الدرعي في تلقين الورد رادا عليه على حد تعبير صاحب الرحلة : ". فرد النصيحة ولم يقبلها، وأنف منها ولم يهتبلها، فقال مجيبا للنصيحة : هذا كلام غير مفيد ..."(الدرعي، 2011 : 723). هذا الإنقطاع الذي حدث بين الناصرية والزيانية جعل هذه الأخيرة تعرف استقلالية في النشاط وتلقين الورد مع الحفاظ على السند الشاذلي الناصري،مع ما اختصت به من أذكار معينة للمريدين والأتباع دون تعقيد في تلقينها فما تقوم عليه لا يخرج عن دائرة الورد الشاذلي بـ: قراءة الإستغفار مائة مرة عند الفجر ،الصلاة على الرسول مائة مرة ،والتسبيح مائة مرة ،وذكر لاإله إلا الله ألف مرة،إضافة إلى تلاوة القرءان والوظيفة الزروقية(سعد الله، 1998 :90).

كما تبرز لنا الرحلة الناصرية المجال الذي عرفه انتشار الطريقة الناصرية التي تعتبر من الطرق التي تفرعت عنها عدة طرق بسند متصل، إضافة الى ما تركه شيوخها من علاقات حيث يذكر الدرعي في مسار رحلته وأثناء وصول إلى مغرار لقاءه بسيدى محمد ابن أبي نوة وإخوته وذكر له محمد ابن أبي نوة أنّ والده من أصحاب الشيخ،وأنه وجد لصحبة الشيخ بركة تامة "(الدرعي، 2011 : 127) .

أما الرحلة الهلالية فقد أشار صاحبها إلى الزاوية الزيانية من خلال رحلته الحجية لعام 1150 هـ/ 1737م حيث يذكر: " ثم ارتحلنا ...وجئنا ضحوة زاوية القنادسة فجلى صباح المسرّة من ليل التمام حنادسة، إذ خرج إلينا رئيسها الفاضل الأجل الحبيب في الله عز وجل صاحب الأخلاق الحسنة والسجايا المستحسنة، أحد رجال العصر الأعيان، أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أبي زيان والعلامة النبيه، العدم النظير والشبه، ذو الجنان الكامل، والعتاد الهامل، أبو الحسن سيدي علي بن محمد بن عبد الله الحاحي، وتلقيانا بالترحاب والأخلاق والرحاب، فجزا من الله خيرا، وأجزا لهما أجرا (الهلالي، بدون تاريخ: 08) .هذه الأوصاف التي وصف بهاالرحالة شيخ الطريقة الزيانية والشيخ أبو الحسن عبد الله الحاحي تدل على المكانة التي احتلاها في المنطقة وما مثلته الزاوية كمنار علمية استطاع خلالها الرحالة الهلالي السجلماسي زيارة خزانة الزاوية والإطلاع على أمهات الكتب التي تزخر بها منها كتاب الإقتضاب لابن السيد البطليوسي وعلى آداب الكتاب لابن قتيبة، وشرح الواحد على ديوان المتنبي، وشرح دلائل الخيرات لسيدي أحمد بن أبي بكر الفجيجي(الهلالي، بدون تاريخ :18).

وفي موضع آخر يشير الرحالة المغربي أبو مدين عبد الله بن أحمد بن الصغير الدرعي في رحلته الحجية التي كانت سنة 1152هـ/1740م عند دخوله القنادسة في شهر رجب من سنة 1152هـ /1937م إلى لقاءه بشيوخ التصوف وزيارته للمرابط سيدي محمد بن أبي زيان .والتقائه به، وكذا لقائه بالفقيه الناسك السيد علي السوسي ثمّ الحاحي، وأكرم وفادتهم وأطعمهم وأدخلهم دار الشيخ وخلوته حيث خزانة الكتب، وأطعمهم الشيخ مع عدد من أعيان الحجاج وأجازهم بالمصافحة، وذكر أنّ سنده في ذلك عن الولي الصالح الناسك السيد الصالح بن المعطي..."(حمادي، 2019: 466-467).

هذه الأمثلة من الرحالة الذين كان لهم لقاء بشيخ الزاوية الزيانية ضمن مسار رحلتهم يبرز الإهتمام الصوفي لهم إضافة إلى حرصهم على توضيح مرتبتهم الصوفية وما تعلّق منها بالمشيخة كما هو حال الشيخ بن ناصر الدعي شيخ ابن أبي زيان أو أبو مدين

الدرعي الذي أراد أخذ العهد عن شيخ الزاوية الزيانية ضمن مجال التكوين الصوفي والمشيخة .

7.2 المزارات والأضرحة :

من أبرز ما تناوله الرحالة عن المنطقة وقوفهم عند المزارات والأضرحة في مسار رحلتهم، وكان لمنطقة الجنوب الغربي نصيب بما تضمنته أدبيات الرحلة حيث نجد في هذا الجانب ما ذكره العياشي في رحلته عند خروجه من سجلماسة قاصدا وادي الساورة .حيث زار قبر " الشيخ أحمد بن موسى في زاويته بمنطقة بني خلف من قرى بني عباس ، كما زار تسابيت بواحة توات وقبر الولي سيدي محمد بن صالح المعروف بعريان الراس (العياشي،2006: 78). وأشار أيضا أثناء عودته ووصوله إلى قرية الكراكد بالقرب من الأبيض سيد الشيخ إلى مزارة الشيخ عبد القادر السماحي شيخ الطريقة الشيخية بقوله " ..فلم نبت إلاّ في موضع يقال إنّ فيه مات الشيخ سيدي عبد القادر بن أبي سماحة ، وفيه مزارة تزار... "(العياشي ، 2006: 548)

كما تناول محمد بن أبي الطيب الشرقي في رحلته زيارته للأولياء والتي كانت بدخوله للمشرية حيث زار فيها روضتي " الشيخ محمد العمري " الملقب بمولى الخلوة، وروضة الشيخ عبد الرزاق المجلد في تلك الجولة وهما من صلحاء المنطقة. ويضيف في سياق الكلام قوله: ".. ونفعنا الله بتلك المزارة وغفر لهذا العبد المذنب مأثمه " (الشرقي،2014: 88). ويشير الحُضَيكي في رحلته أثناء وصوله إلى بوسمغون حيث يعرف بها بقوله :".. بلاد ذات أشجار ومياه، سميت باسم شيخ حلّ فيها، وهناك قبره يزار، نفعنا الله به ورحمه "(الحضيكي ،201: 83).

هذه المحطات التي وقف عندها الرحالة للزيارة أو التبرك تعطينا صورة عن مسالك الرحلة الصوفية التي قد يتزود منها السالك لمواصلة الطريق كما تمثل رمزية وأهمية ضمن أدبيات الخطاب الصوفي وبما تدعمه من تواصل مع شيوخ وعلماء

المتصوفة، وعلى هذا الأساس فإنّ الصورة التي عكسها الرحالة ذات مضمون وقيمة صوفية وتاريخية.

4. خاتمة:

من خلال ما سبق ذكره نجد أن منطقة الجنوب الغربي مثلت محطة من محطات الرحالة المغاربة الذي تركوا آثارا وانطباعا عن مسار رحلتهم المشرقية وزيارتهم للمنطقة، كما أسهموا بدور كبير في تواصلهم الصوفي ضمن ما يعرف بالسياحة الصوفية وما يرتبط بها من زيارات للزوايا والأضرحة والالتقاء بمشائخ التصوف، كما حرص الرحالة على الأخذ من بعضهم البعض مبادئ التصوف وأسرار الطريق، ومنه اكتسبت التجربة الصوفية بالجنوب الغربي أهميتها وخصوصيتها عن طريق الانتشار خارج المجال فأغلب الرحالة المتصوفة كان لهم دور في نقل التراث الصوفي والتعريف به، وساهموا في تدعيم الثقافة المشتركة والتأسيس لطرق صوفية ترتبط في سندها بطرق أخرى مثل الكرزازية أو الشيخية والزيانية. والتي انتشرت في فضاء جغرافي واسع عن طريق الأتباع والمريدين وحتى الرحالة، الذين تركوا مادة مصدرية أصبحت منطلقا للتعريف بالأماكن الجغرافية ومعالمها ومميزاتها وتراثها الفكري والديني. كما نقترح أن تنجز دراسات وأبحاث حول النشاط الصوفي بالمنطقة من خلال ما تركه الرحالة من تراث وبما تضمنته مؤلفاتهم ضمن أزمنة متنوعة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الإفراني، محمد الصغير. (1998). *نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي*. (تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي). (ط1). الدار البيضاء. المغرب: مطبعة النجاح الجديدة.

2- بن ناصر، أبو عبد الله محمد الدرعي.*(2011).الرحلة الناصرية1709-1710.* .(ط1) (تحقيق وتقديم: عبد الحفيظ ملوكي). أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة:دار السويدي للنشر والتوزيع.

3- *بن عابد* ، *يوسف* بن محمد الحسني الفاسي المغربي.(1993)، رحلة إبن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت.(ط (تحقيق وتعليق:إبراهيم السامرائي. عبد الله محمد الحبشي).بيروت: دار الغرب الإسلامي.

4- الحضيكي، أبي عبد الله محمد بن ابي أحمد السوسي .(2011). *الرحلة الحجازية*. (الطبعة1).الرباط ، المغرب: مركز الدراسات والأبحاث وأحياء التراث الرابطة المحمدية.

5- العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد.(2006). *الرحلة العياشية 1661-1663*.(الطبعة1، المجلد2.1).(تحقيق وتقديم :سعيد الفاضلي وسليمان القرشي) الإمارا ت العربية المتحدة : دار السويدي للنشر والتوزيع.

6- حمادي، عبد الله الإدريسي.(2019). *الإستبصار في تاريخ بشاروما جاورها من الأمصار*.(الإصدار1، المجلد 2).الجزائر: دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع.

7- حمادي، عبد الله الإدريسي. (2019). *حاضرة القنادسة وزاويتها الزيانية الشاذلية بهذه الصحراء الجزائرية تاريخا ومناقبا* .(الطبعة1،الجزء2). الجزائر: دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع .

8- حمادي. عبد الله الإدريسي. (2019).*السلطان السجلماسي الفقيه الصوفي المترى عليه الإمام أحمد بن أبي محلي مهدي وادي الساورة (967 هـ/1560م- 1021 هـ/1612م)*.(الطبعة1 .الجزء2.1). الجزائر: دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع.

9- حوتية، محمد.(2007). *توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشرللهجرة (الثامن عشر والتاسع عشرميلادي)دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية* .(الجزء1). الجزائر: دارا لكتاب العربي.

10- الغيتاوي، مولاي التهامي. (بدون سنة). منجد الولهان في معرفة ومآثر محمد بن أبي زيان قدس الله روحه . عين مليلة- الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

11- القدوري، عبد المجيد .*ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت*.(1991). الرباط: مطابع منشورات عكاظ.

12- الهلالي، بن عبد العزيز أحمد .(بدون سنة). التوجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره- عليه السلام -. كوسام أدرار. الجزائر: خزانة سيدي عبد الله البلبالي.

13- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد.(1997). *الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة السعدية* .(القسم الثاني، الجزء6). (تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري).الدار البيضاء- المغرب: دار الكتاب.

14- سعد الله ، أبو القاسم. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي1830-1954* . (الطبعة1، الجزء4). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

15- الشرقي، محمد الطيب ابن محمد بن موسى الفاسي.(2014). رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة. (تحقيق : عارف عبد الغني). دمشق ، سوريا: دار العراب للدراسات والنشر والترجمة .

16- Rinn, Louis .(1884). *Maraboutes et Khouans*, étude sur l'islam en Algérie .Alger : Adolphe Jourdan libraire éditeur.